نفسية أبي الطيب في شعره

أصدق ما يعبر عن المرء لسانه، والشاهد على الإنسان كلامه، وأعظم بَيِّنَةٍ عليه اعترافه، وأبو الطيب يقدم لنا أسرار نفسه، وخبايا جوانحه في شعره، ويمكنك أخذ صورة كاملة لأبي الطيب من شعره، وسوف أضرب أمثلة من قريضه لنفهم هذا الشاعر أكثر. يقول:

فثِبْ واثقًا بالله وثبةَ ماجدٍ يرى الموتَ في الهَيْجا جَنى النَّحلِ في الفمِ

فالرجل طموح سبوق، مغرم بالمعالي، عاشق للمجد، مخاطر في سبيل مراده، وليس بليدًا قاعدًا مهزومًا، كبعض الشعراء الذين ألقو بأيديهم إلى التهلكة، يقول:

لولا مَفَارقةُ الأحبابِ ما وجدتْ لها المَنايَا إلى أرواحِنَا سُبُلا

فهو رهيف الإحساس، حي العاطفة، جياش الفؤاد، وليس ثخين الطبع، بارد المشاعر، ميت الروح.

يقول:

عِشْ عزيزًا أو مُت وأنتَ كريمٌ بين طعنِ القَنَا وخَفْقِ البنودِ

فرؤوسُ الرماحِ أذهبُ للغيـ ـظِ وأشفى لغلِّ صَدْرِ الحَقودِ

لا كما قد حَييتَ غيرَ حميدٍ وإذا مُتَّ مُتَّ غيرَ فقيدِ

فاطلبِ العزَّ في لظَى ودعِ الذُّ لَ ولو كانَ في جِنانِ الخلودِ

فهذه فلسفته في الحياة، وهي الكفاح من أجل العزة، ورفض الذل، وهجر الخنوع والاستخذاء، ولو لقي الإنسان في سبيل ذلك الألاقيّ، ولو نهشته الرماح، وعضته شفرات السيوف، فهو يرى أن الحياة هي الجهاد والبذل والتضحية، والمشقة هي جنة الدنيا، وبستانُ العمر الوارف، وأن حياة الذل والقهر والكبت جهنم العيش، ولظى الدنيا، فلماذا لا يغامر الإنسان ويركب المصاعب؟! ويستهين بالحوادث؟! حتى يصل إلى مراده ومبتغاه. ويقول:

من كلِّ أبيضَ وضَّاحٍ عمامَتُهُ كأنما اشتملتْ نورًا على قبسِ

دانٍ بعيدٍ محبٍّ مبغضٍ بهجٍ أغرَّ حُلوٍ مُمرٍ لينٍ شرسِ

ندٍ أبِيٍّ غَرٍ وافٍ أخي ثِقةٍ جَعْدٍ سَرِيٍّ نهٍ نَدبٍ رِضًا ندُسِ

وقبل أن أوضح الحديث عن نفسيته من خلال هذه المقطوعات، أذكرك بقوة لغته، وتمكنه من المفردات، واقتداره على الصياغة، وسهولة اللفظ في لسانه، وانسياب الجمل معه، وهذا هو الشاعر الذي تطاوعه اللغة، ويسعفه الكلام، وتمطره الحروف بوابل من التراكيب والصور، وتراه في المقطوعة السابقة يدعو إلى صفات متضادة، لكنها كمال في موطنها، وجمال في مجموعها، فهو يريد إنسانًا دانيًا من أحبابه، مُبْغِضًا لأعدائه، حسن الطلعة لأصدقائه، جميل المحيا لمعارفه، حسن السجايا لمن يحبه، ولكنه مر الطعم لمن يعاديه، وشرس الطباع لمن يخالفه، كريم سخي، صاحب وفاء، شريف نفس، عاقل يفهم عنك، ويحيط بمن حوله، ويدرك مراد من يحدثه، وهذه صورة الرجل المثالي المقبول عند أبي الطيب فهو مغرم بخصال الحمد، محب لمعاني النبل في

الرجال، أما عدوه فهو البخيل الجافي، ساقط الهمة الجبان البليد، ولكن هذا الشاعر المصقع، اختزل اللفظ، وأوجز في الكلام، وعصر الفضفضة الوصفية في اختصار لطيف شريف.

يقول:

أَرَقٌ علــى أَرقٍ ومثلــي يَــأْرقُ وجــوًى يَزِيـدُ وعَبْـرةٌ تَترقـرقُ

فانظر إلى هذه القلقة المطربة المعجبة التي يتراقص معها البدوي مع تمكن اللفظ من موضعه، فليس قلقًا في مكانه، ثم انظر لجودة المعنى؛ فإنها ذِكْرُ حال المحب في أرقه الدائم، واحتراق حشاياه بنار الوجد، وغزارة دمعته مع جمال المطلع، واختيار المفردة، فهي تناسب الحب والوجد والغرام، ويختم إحدى قصائده ببيت ذائع في المدح فيقول:

ألا كُلُّ سَمْحٍ غَيركَ اليومَ بَاطِلُ وكُلُّ مَدِيـحٍ في سِـواكَ مُضَيَّعُ

فانظر إلى حسن الختام، وإغلاق دائرة القصيدة، مع روح الحكمة وجزالة اللفظ، فكأن المعاني معروضة أمامه يختار منها ما يشاء، ويترك ما يشاء، ثم انظر إلى حسن التقسيم في البيت، فكل نصف تام كامل، لا يحتاج إلى النصف الآخر، ثم إن كلمة سمح، وباطل، ومديح، ومضيع، منتقاة فصيحة وليست ركيكة متبذلة.

ويقول:

ومَنْ يَبْغِ ما أبغي من المجدِ والعُلى تَســاوى المَحَايِـي عَنْدَهُ والمقَاتِلُ

obeikandi.com

فهذه حكمة شاردة، وبيت فريد، فنصفه الأول توطئة، والنصف الثاني نص مقصود، أو مقدمة ونتيجة، ثم إن البيت فيه من علو الهمة، وجلالة المقصود، وارتفاع القدر، ما يدل على الطموح، وشرف النفس، وهذا ظاهر في شعره، وفي البيت استقرار الكلمة وكأنها خلقت لهذا الموضع فلو قلت للناس: (تساوى المحايي عنده) ثم سكت لأكملوا وقالوا: (المقَاتِلُ).

ويقول:

ليسَ التعلُّلُ بالآمالِ من أربِي ولا القناعَةُ بالإقلالِ من شيَمِي

فإنه قابل وزاوج وضاد، فقابل بين التعلل والقناعة، ويجمع بينهما معنى الاكتفاء، وقابل بين الآمال والإقلال، وبين قوله: (أربي وشيمي) فأتى البيت تمامًا على الذي أحسن، وأبو الطيب يفعل هذا وأكثر، وهو صاحب البيت البهيج الذائع الشايع، إذ يقول:

أزُورهمُ وسوادُ الليلِ يشفعُ لي وأنْثَني وبياضُ الصُّبحِ يُغْرِي بي

فقابل بين أربعة بأربعة: أزورهم مع وأنثني، وسواد الليل مع بياض الصبح، ويشفع مع يغري، ولي مع بي، وهذه هي الموهبة الجياشة للقلب الحي والعقل الذكي، ويقول:

رِدِّي حياضَ الرّدى يا نَفْسُ واتَّركي حِيَاضَ خوفِ الردى للشَّاءِ والنَّعَمِ

فهي همته المتوثبة، ونفسه التواقة، يشرحها لنا في قوالب من السحر، ويقدمها لنا في باقات من الشعر.

ومن خصائص هذا الشاعر أنه فريد في تركيب معانيه، وقد يسبقه الشعراء إلى المعنى، لكنه يفوقهم في حسن العرض، وجمال التركيب وبراعة الإخراج، حتى تجزم أنه لم يسبقه أحد إلى هذا المعنى، وهذا الذي حير النقاد في شعره، وأوقفهم مذهولين أمام قصائده.

يقول في ممدوحه وقد دخل مدينة حمص:

دخلتَها وشعاعُ الشمسِ مُتَّقِدٌ ونورُ وجْهِكَ بين الخَلْقِ باهرُهُ

في فَيْلقٍ من حَديدٍ لو قذفتَ به صَرفَ الزمانِ لما دَارتْ دَوائرُهُ

فهو مهما صعبت القافية مَرِنٌ في جذبها، متمرس في التعامل معها، حاذق في مطارحتها، بعيد عن معاضلة الكلام، وزيادة الضمائر وحروف الجر المقحمة إقحامًا كما يفعله ضعاف الشعراء، فلا حشو في شعره، وأعد النظر في البيتين السابقين، فقوله: (دخلتها وشعاع الشمس متقد) تجد أن كل كلمة احتلت مكانها الطبيعي دون إعادة ضمير، أو زيادة حرف، أو افتعال حشو لا داعي له. وانظر كيف أنهى نصف البيت، ليصبح كاملاً تامّاً، غير محتاج إلى كلام آخر، وهذه هي البلاغة بعينها.

ويقول في قصيدة أخرى:

جَرَى حُبُّها مَجرى دَمي في مَفَاصِلي فأصبَحَ لي عن كُلِّ شُغْلٍ بها شُغلُ

كأنَّ رقيبًا منكَ سدَّ مسامِعي عَنِ العَذلِ حتَّى ليسَ يَدْخُلُها العذلُ

فأنت تشاهد قصيدة للمعاني في أي مذهب سلك، فإن قصد الغزل أتحف وشنف، وشدّك بصور من عالم الحب، ودنيا الهجر والوصال، وديوان الغرام والعشق، وإن مدح خلع على ممدوحه مطارف من أبهى الشعر قبله ولكنه مُخترع، سيّال القريحة، متجدد العطاء، ولو أمعنت النظر في البيتين السابقين لوجدت المعنى جديدًا، ولو أن بعض أجزائه سُبِقَ إليه، لكن التركيبة الكاملة، والكلية الواحدة للمعنى مُخترعة من هذا الشاعر المتمكن.

obeikandl.com